

## الفضل الأول

## ثوابت إيمانية

إن أئمن وأعظم ما تملكه في هذه الحياة هو إيمانك بالله، وإن أجل نعمة ينعمها الله عليك أن تعيش حياتك بالإيمان وأن تُحيي قلبك بطاعة ربك وطاعة رسوله ﷺ وهذا هو أكبر سبب لتحصيل السعادة في العاجل والأجل، وبقدر إيمانك يرفعك ربك في الدنيا والآخرة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والإيمان حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والتصديق به عقداً والإنرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء لله وحده إلهه ومعبوده، والطريق إليه تجديد متابعة رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتعميض عين القلب عن الالتفات إلى ما سوى الله ورسوله ﷺ، ومن اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله إليهم<sup>(١)</sup>. اهـ.

نعم والله لو سلبت منك كل النعم وبنى في قلبك إيمانك بالله إنك لفي خير عظيم، فاستشعر هذه النعمة واشكرها يزدك ربك منها، وهذا هو الفضل والشرف

(١) «الفوائد» بتصرف يسير (ص: ١٢٩).

والكرامة والرفعة والعزة كل ذلك في إيمانك بالله، ومن نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياه فآلق بها في نحره وفرغ قلبك للانشغال بها يرضي ربك عنك.

لذلك إخوتي قبل الدخول في أصل الكلام ننبه على هذه الأصول والثوابت الإيمانية التي يجب أن يمتلئ بها قلبك وأن تعيش حياتك في ظلال معانيها ومن هذه الأصول ما يلي:

أولاً- إن الله على كل شيء قدير:

لا بد أن تؤمن وتوقن أن ربك جل جلاله ليس لقدرته متهى ولا يعجزه ولا يصعب عليه شيء قط، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكل خلقه مقهورون بقدرته، ولا تخرج ذرة في الكون عن تديره وأمره؛ فهو القادر وحده على الهداية والإضلال، والإحياء والإماتة والضر والنفع، وأن ينقذ الغرقى وينجي الهلكى، بيده الملك يغني من يشاء ويفقر من يشاء قال الله جل جلاله ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الزمر: ٢٦).

وها هو إبراهيم الخليل إمام الختفاء وليو الأنبياء يعلن هذا الاعتقاد كما ذكر ربنا في سورة الشعراء ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ ٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لِي حَبِيبَتِي يَوْمَ الزَّيْتِ ﴾ (النحل: ٧٨-٨٢).

فالذي يملك أن يخلق ويرزق ويحي ويميت ويمرض ويشفي هو الله فلا تطلب شفاء مرضك من سواه لا بأس أن تأخذ بالأسباب لكن أين تضرعك لربك؟! وأين دعاؤك؟! دعائك!

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللهم رب الناس، أذهب البأس اشفه أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً»<sup>(١)</sup>.

لذلك تيقن أنه مهما عظم المرض واشتد البلاء فالله قادر على الشفاء وكشف الكروب، وقدرة ربنا لا يقف أمامها شيء؛ فتعامل مع ربك بالثقة واليقين، والجا إليه دوماً فهو خير الناصرين.

ثانياً - إن ربك عليم حكيم:

كل ما يجري في الكون وكل ما سيجري وكل ما حدث يعلمه الله ومن حكمته أن يكون في الدنيا كفر وإيمان، وحق وباطل وصاعة ومعصية وفقر وغنى ونصر وهزيمة، ولو كان كل الناس مسلمين مؤمنين للزم من ذلك تعطيل الشرع فلا يكون هناك حينئذ دعوة ولا جهاد ولا صبر، ولا مجاهدة باللسان، ومدافعة لحزب الشيطان ولو كان كل الناس أصحاب أغنياء لما كانت هناك صدقة ولا زكاة ولا إعانة في قضاء دين، أو صبر على فقر أو شكر لنعمة الغني والعافية، فهذا الواقع الذي تعيشه قدره الله وشاء أن يكون كذلك، والله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء من خلقه وكل ما سوى الله خلقه، وهو يعلم تبارك وتعالى كل ما يدور في كل العقول وكل ما يدبره البشر وكل ما يسرون وما يعلنون، وأما هؤلاء المسلمون الشرذون الذين يقتلون وتغتصب أراضيهم وتنتهك أعراضهم وتنتهب ثرواتهم فالله أعلم بهم وهو أرحم بهم منا، ولكن هناك سنناً كونية وحكماً إلهية لا بد أن تعمل في هذا الكون، وكم من بلاء نزل كان من ورائه حكم

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٤٣)، ومسلم برقم (٢١٩٢).

كثيرة لا يعلمها العباد، وكم من بلاء حلت بسببه نعماء، وكم من مصيبة ونكبة تبعتها صحوة وتوبة فقد يكون البلاء المؤلم اللاذع بمثابة صدمة كهربائية تعيد الحياة لجسد الأمة الذي أرهقته ومزقته كثرة الذنوب والمخالفات.

فتجدد الحياة ويعقبها رجوع ودموع، وتضرع وتذرع، وتوبة وأوبة، وصدق في الحال والمقال وندم على التضييق في حق الله جل جلاله **قَالَ الْعَالِي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَالَهُمْ بِظَرْعُونَ ﴿١٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَضُرُّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ (الأنعام: ٤٢-٤٣).**

فلا بد أن تعيش حياتك في ظلال هذه الحقيقة أن الله بكل شيء عليم وفي كل فعل له الحكمة البالغة **قَالَ الْعَالِي: ﴿ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَسْمَعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ (العنكبوت: ٢٩).** فكن على يقين من ذلك فربك يعلم كيد الكائدين، ومكر الماكرين، وخبث المجرمين، وهو قادر على أن يهلك أعداءه في طرفة عين ولكن كل شيء بقدر ولكل أجل كتاب.

### ثالثاً- الله لطيف بعباده:

ربنا رحيم رؤوف لطيف بعباده **قَالَ الْعَالِي: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴿ (التوبة: ١٩).** وقال جل ذكره **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴿ (البقرة: ١٨٥).** وتأمل هذا المشهد القرآني الجميل الجليل قال ربنا **﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ (التوبة: ١١٧)،** وعن عمر بن الخطاب **رضي الله عنه** قال: قدم رسول الله **صلى الله عليه وسلم** بسبي فإذا امرأة من

العبي نسمعى، إذ وجدت صبيًا في السبي بأخذته فألزقته بطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»<sup>(١)</sup>. وما أروع هذه الآية وما أهدى معناها: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧)، فكن لله وليًا تكن به عزيزًا قويًا، ما كان لربنا سبحانه أن يترك أوليائه بلا حفظ ونصر، كلا والله بل هو يكلؤهم ويحفظهم في أنفسهم وذرياتهم وأموالهم، وهذا من تمام عزته فمن كان في جواره فلن يستطيع مخلوق أبدًا أن يخفر الله في جواره، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ (الزُّنُور: ٨٨).

والنبي ﷺ يقول «من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله»<sup>(٢)</sup> فإذا كان مجرد صلاة الصبح في جماعة تجعل العبد في ذمة الله وحفظه فكيف بالأعمال التي هي أعظم من ذلك وأكبر وأفضل؟، وكيفما تكن لله يكن الله لك

رابعاً- إن ربي غني كريم:

ومن هذه الأصول أن الله غني عن العالمين لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، لا بد أن تعتقد أن الله غني عنك وعن عملك وأن عملك لا ينفع إلا نفسك ولو كفر الناس كلهم، ما نقص ذلك من ملك الله شيئاً، ولو آمن كل الخلق ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَسْفَرًا فَفَرَّاهُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥). وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنِي عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٦). وفي

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه مسلم (٦٥٧).

الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «بد الله ملائ لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغيض ما في يده، قال: وعرشه على الماء وببده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»<sup>(١)</sup>.

فإذا ابتلاك ربك فصبرت على بلائه، ورضيت بحكمه زادك الله توفيقاً وسداداً ووهبك حكمة ورشاداً، وأما إذا سخطت وجهلت وأعرضت وضجرت فإن الله غني عنك، ولن نضر الله شيئاً قال رسول الله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»<sup>(٢)</sup>.

لا بد أن تعلم وتوقن أن ربك غني عن العالمين، وهو سبحانه غني كريم لا يتفد عطاؤه ولا تحصى آلاؤه، ولا تحد نعمائه، ولا يذل أوليائه، ولا يعجزه أعداؤه، ولا شفاء إلا شفاؤه ولا عطاء إلا عطاؤه، قال الله جل جلاله ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الأنعام: ١٠٠).

قال الله جل وعلا في الحديث القدسي: «عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَمِّي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَانُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١١)، ومسلم (٥٩٩٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٣٠١)، وحسنه الألباني في «الصحيحه» (١٤٦، ١٢٢٠).

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَخْرَ. يَا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْتُمُوهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْتُكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»<sup>(١)</sup>.

خامساً- إن الله سميع بصير:

ومن هذه الأصول كذلك أن تؤمن وتعتقد وتوقن أن الله سميع لا يغيب عن سمعه صوت، بصير لا يغيب عن بصره شيء، فسمعه سبحانه محيط بكل مسموع وبصره محيط بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء من المخلوقات، في الأرض ولا في السموات ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (الزمر: ١٠).

فربنا يسمع ويبصر حقيقة على ما يليق بجلاله وهو منزه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى نَجْوَاهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾**

(الزمر: ٥)

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما	في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والبداني
وهو البصير يرى ديب النملة السو	داء تحت الصخر والصوان

(١) رواه البخاري برقم (٧٤١١)، ومسلم (١٩٩٣).

ويرى مجارى القوت في أعضائها ويرى نياط عروقها بعيان  
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذلك نقلاب الأجنان

ويقول حافظ بن أحمد حكيم رحمته:

وهو الذي يرى ديب الذر وهو الذي يرى ديب الذر  
وسامع للجهر والإخفات وسامع للجهر والإخفات  
وعلمه بما بدا وما خفى وعلمه بما بدا وما خفى  
وهو الغني بذاته سبحانه وهو الغني بذاته سبحانه  
وكل شيء رزقه عليه وكننا مفتقر إليه

سادساً - الابتلاء سنة ثابتة:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴾

(المائدة: ٢)

قال الشيخ السعدي رحمته: إن الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار وأخبرهم أنهم سينقلون منها وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله فله شر الجزاء<sup>(١)</sup>، قلت: كأن الحياة والموت ما خلقا إلا للابتلاء، والإنسان ما خلق إلا للابتلاء بالتكاليف الشرعية وعلى حسبها يكون جزاؤه في الآخرة، وقال الله

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٧٥).

جلا جلاله ﴿الذَّٰرِ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ (العنكبوت: ٢٠-٢١).

إنه لا بد من الابتلاء ليميز الله الصادق من الكاذب والطيب من الخبيث، هذه قاعدة أصيلة في طريق السير إلى الله ووردت في آيات كثيرة غير ما ذكر من ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤)، وَقَالَ الْجَالِيُّ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٢).

والبلاء في حقيقة أمره ليس عذاباً من الله لعبده، كلا بل إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه»<sup>(١)</sup>، وقال رسول الله ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»<sup>(٢)</sup>.

وبين النبي ﷺ أن البلاء يكفر سيئات العبد ويظهره من الذنوب والخطايا فقال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٤٥).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (٢٣٩٦)، وحسنه الألباني في «الصحيفة» برقم (١٢٢٠٠).

(٣) رواه الترمذي وقال حسن صحيح، (٢٣٩٩)، وحسنه الألباني كما في «الصحیح» برقم (٢٢٨٠).

فإياك أن تظن أنك سوف تعيش في الدنيا بلا ابتلاء بل إن الناس كلهم حتى الكفار مبتلون ولكن فرق كبير بين بلاء المؤمن الذي يزكّيه الله ويطهره به، وبين عذاب الله الذي يصيب به الكافرين في الدنيا قبل الآخرة، قال عبد الملك بن إسحاق ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره أو يبيلية لينظر كيف صبره<sup>(١)</sup>. فاعلم جيداً أخي في الله أنه لا بد من البلاء ولكن اعلم أيضاً أن ربك جل جلاله لا يهمل عباده بل يلطف بهم ويعطيهم من المعونة ما يثبتهم به ويحفظهم به، ولكن القضية أن تصبر وتثبت إذا وقع بك بلاء ثم ادع الله أن يكشفه عنك، وأن يثبتك فسوف تجد لطفاً عجبياً من ربك جل جلاله فاحفظ الله يحفظك واصل الله العافية.

(١) «عدة الصابرين» (ص: ١٧٢).